لحظة الموت بشارة للمؤمن وحسرة على الكافر والعاصي

. . . يتلقى عَزرائيل عليه السلام (ملك الموت) الأمر من اللَّه سبحانه بقبض روح فلان بن فلان في اليوم والساعة وأجزاء الثانية حسب علم اللَّه. . وعزرائيل من إعلام اللَّه سبحانه، يعلم من هو المقبوض وما درجة إيمانه وصلاحه أو كفره وعصيانه.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

[سورة السجدة، الآية: ١١]

فهي لحظة حاسمة في حياة الإنسان بعد أن انتهى زمن تكليفه فهو إمَّا أن يفلح وإلى الأبد وإما أن يخيب وإلى الأبد، ولحظة الموت من أعسر لحظات حياة الإنسان الأخيرة بعد أن تركه اللَّه سبحانه وعلى مدى سبعين أو ثمانين سنة أو أكثر أو أقل يفعل ما يشاء والآن جاء دور الحساب، وأما المؤمن فالموت بشارة عظيمة له كما يقول اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

[سورة فصلت، الآيات: ٣٠ ـ ٣٢]

. . . فالملائكة تتنزل بأمر اللَّه سبحانه لتبشر المؤمن في لحظة النزع والموت، بعد أن يفقد الذي يُحتضر القدرة على الكلام، ويكشف اللَّه سبحانه عنه بعض الحجاب، فيريه من آياته وهم الملائكة الذين أرسلهم ليبشروه، وكذلك فإن الملائكة تتنزل على المؤمنين من أهل الاستقامة في قبورهم وبعثهم وحشرهم وفي جميع مراحل عالم البرزخ حتى يلقوا ربهم يوم القيامة، وبأمر اللَّه سبحانه تقول الملائكة لهم كما في تفسير الآيات الكريمة: لا تخافوا مما ستقدمون عليه من عالم البرزخ والآخرة، ولا تخافوا على ما خلفتم في دنياكم من الزوج والولد، فإن اللَّه سبحانه وليكم ووليهم، وبعد هذه الطمأنينة يبشرونهم بالجنة التي وعدهم اللَّه سبحانه بها، والتي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لهم ما يشاؤون فيها وعند اللَّه المزيد خالدون فيها مخلدون وعد اللَّه حقاً إنه لا يخلف الميعاد.

. . . وأما الكافر والفاسق والعاصي وكل من أتى اللَّه سبحانه على غير دين الإسلام فإن لحظة موتهم لحظة العذاب والإهانة والضرب. . وهنا علم اللَّه وقدرته، ينال الكافر والعاصي هذا العذاب في لحظة الموت دون أن يرى أقربُ المقربين إليه شيئاً أو يحس أو يدرك هذا العذاب، وهذه الإهانة غير مرئية لأنها من غيب اللَّه الذي أخفاه عنا ولو أظهره لنا لآمن الناس لأنهم رأوا ما لم يعد غيباً، ولا فضل لهم يومئذ بإيمانهم لأنهم آمنوا لما رأوا العذاب، والفضل كل الفضل لمن آمن بقدرة اللَّه وغيبه الذي يوصله إليه عقله بما أودع اللَّه سبحانه من آياته في هذا الإنسان وفي هذا الكون العظيم، يقول تعالى عن لحظة موت هؤلاء الفاسقين الظالمين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

[سورة الأنفال، الآية: ٥٠]

ويقول تعالى أيضاً عن هذا الموقف العصيب للكافرين في لحظة الموت: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٩٣]

وهؤلاء أيضاً يكشف اللَّه سبحانه عنهم بعض الحجاب، ليسمعوا ويروا الملائكة الذين يضربونهم ويسمعونهم الكلام الشديد المهين، ليذوقوا في هذه اللحظات عذاباً وألماً ورعباً، وخاصةً من رؤيتهم ملائكةَ العذاب الغلاظ الشداد الذين لا يعصون اللَّه سبحانه ما أمرهم، فتزدحم عليهم الكربات وتغمرهم الشدائد.

ويتمنون لو تنشق الأرض فتبتلعهم إلى غير رجعة ودون قرار.

. . . وتبدأ حسرات الكفار والعصاة من لحظة الموت عَبْر حسراتهم وعض أناملهم إلى يوم القيامة. . فيسألون العودة إلى دار الدنيا ليعملوا فيها صالحاً كما أمر اللَّه سبحانه قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

[سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠]

لذلك حذرنا اللَّه سبحانه في كثير من آياته الكريمة لحظة الموت لأنه لا يمكن لأحد أن يعود إلى الدنيا مرة أخرى (وهذا من غيب اللَّه أيضاً)، لذلك نسأل ربنا عز وجل في كثير من دعائنا الصلاح والتقوى والعمل الصالح والإنفاق وأداء الفرائض والإكثار من الصدقات والنوافل لنلقاه وهو راضٍ عنا، تتلقانا الملائكة بالبشرى، ولا تكون حياتنا علينا حسرة.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۞ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ .

[سورة المنافقون، الآيات: ٩ ـ ١١]

ومن الآيات الكريمة نستدل على أن الإنفاق في سبيل اللَّه سبحانه له أثر عظيم، يظهر ذلك الأثر من لحظة الموت وفي عالم البرزخ ويوم القيامة.

. . . ولنا في هذا المقام حديث، وهو أنَّ الأحياء في ساعة الموت على درجات كثيرة، فليس كل مسلم أو مؤمن تتلقاه الملائكة بالبشرى ويكون من صنف الآية الكريمة ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ فالمؤمن على درجات كلما سمت درجته وعلت من واقع إيمانه وعمله الصالح وإنفاقه في سبيل اللَّه تلقته الملائكة بكامل البشرى والتبشير، وكلما قلَّ عمله الصالح قلَّت درجات البشرى، وكثير من المؤمنين العصاة أتوا اللَّه سبحانه وهم على معصية، لم يؤدوا ما عليهم من فرائض، ولم يعرفوا للإنفاق في سبيل اللَّه طريقاً، ولم يكن لهم من إسلامهم إلا الاسم، ولم يكن لهم من إيمانهم إلا الأماني الكاذبة، لأن الإيمان كما قال رسول اللَّه ﷺ:

عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

« أفضل المسلمين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وأفضل المهاجرين من هجر ما نهى اللَّه عنه، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات اللَّه عز وجل » .

[رواه الطبراني في المعجم الكبير [صحيح]

فهؤلاء العصاة ليس لهم بشرى، ولا تتلقاهم الملائكة إلا بضرب وجوههم وأدبارهم ولا تخرج أنفسهم إلا بذل وإهانة وعذاب، وينالهم ما ينال الفاسق الكافر في لحظة الموت، باستكبارهم على اللَّه ورفضهم طاعته وأداء فرائضه وما أمرهم اللَّه سبحانه به واللَّه أعلم.